أفريقيا وتحديات عصر الهيمنة أي مستقبل؟

محمدالجوهرى

فى عصر أصبحت فيه العولمة –بما تتضمنه من ثورة هائلة فى المعلومات ووسائل الاتصال وحرية انتقال البضائع والأفراد ورؤوس الأموال– وسيطرة قوة وحيدة على مقدراته أهم سماته ، اصبح مجتمع المخاطر– هذا المفهوم الذى صاغه عالم الاجتماع الألماني "ايرلش بيك"– السمة الأساسية للمجتمع الإنساني فى الوقت الحاضر ، الأمر الذى سوف يلقى بظلاله على المستقبل ، وتسود معه النظرة التشاؤمية لهذا المستقبل. هذه العولمة التى تتضمن تهميشا لدول الجنوب بصفة عامة ، ولها بالطبع العديد –إلى جانب إيجابياتها – من الآثار السلبية على حياة الأفراد ليس فقط فى الوقت الحاضر ، ولكن بالطبع أيضا فى المستقبل.

من هنا تنبع أهمية هذا الكتاب " **أفريقيا وتحديات عصر الهيمنة أي مستقبل؟**" الذى يعرض فيه الكاتب للتحديات التى تواجها أفريقيا. هذه التحديات التى يفرضها الوضع الراهن الذى نعيشه الآن ، وهى تحديات ليست فقط نابعة من الداخل الإفريقي ، وانما أيضا نابعة من طبيعة النظام الدولى القائم.

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب بالإضافة إلى مقدمة الكتاب وخاتمته ، تأتى مقدمة الكتاب لتوضح الآثار السلبية للنظام الدولى على أفريقيا فى كل الحالات ، سواء كانت العلاقة بين أطرافه الرئيسية تغلب عليها السمة الصراعية أو السمة التعاونية ، فالعلاقة بينهما – أفريقيا والنظام الدولى– دائما غير متكافئة ، وفى هذا الإطار يعرض الكاتب لما يسميه "التحقيب التاريخى لتطور النهب الأوروبي لموارد القارة المختلفة" ، فقد مرت عملية النهب لموارد القارة المختلفة بالعديد من المراحل. أولها مرحلة أولوية عنصر العمل ، حيث تم استنزاف موارد القارة البشرية فى شكل تجارة الرقيق ، حيث تم نقل عدد كبير من أبناء القارة ، تقدره بعض الإحصاءات بـ15 مليون مواطن إفريقي ، للعمل فى أوروبا وأمريكا. ثانيهما عصر التوسع الإقليمي ، حيث اتجهت أوروبا إلى الاستعمار المباشر للقارة ، وقد ترتب على هذا الاستعمار الكثير من الآثار السلبية التى مازالت تفعل فعلها السلبى إلى الآن. ثالث هذه المراحل عصر الأولوية الاستخراجية ، حيث أصبحت موارد القارة هى المساهم الأكبر فى التطور الاقتصادى والتقنى فى الغرب.هذه المراحل المختلفة كان لها اثر سلبى على القارة ، حيث تم استنزاف موار القارة البشرية والاقتصادية ، كما أوجدت مشكلات الحدود التى مازالت تعانى منها الكثير من الدول الإفريقية بعد حصولها على الاستقلال ، كما أعاقت التطور المجتمعى والسياسى لإفريقيا ، فلم تستطع الدولة الإفريقية بناء مؤسساتها النابعة من واقعها ، فضلا عن انتقال تركة التسلط والقهر – التى كانت سائدة إبان الفترة الاستعمارية– إلى الدولة الإفريقية بعد حصولها على

الاستقلال ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الفساد وشخصنه السلطة وإعاقة مسيرة التنمية داخل القارة وغيرها من الآثار السلبية...

ثم ينتقل الكاتب فى خاتمة هذه المقدمة إلى الحديث عن تصاعد الاهتمام الدولى بأفريقيا ، فقد أصبحت أفريقيا فى قلب الاهتمام الدولى بصفة عامة ، والأمريكي بصفة خاصة ، خصوصا بعد أحداث الحادى من سبتمبر.

ياتى الباب الأول من الكتاب تحت عنوان "قضايا منهجية ونظرية " وفى هذا الباب يؤكد الكاتب على أن الأطر المعرفية القائمة لتفسير الواقع الإفريقي عاجزة عن القيام بهذه الوظيفة ، هذا العجز أدى إلى سوء فهم الواقع الإفريقي ، ومن ثم غياب الرؤية التحليلية الكلية الملائمة لفهم هذا الواقع بكل جوانبه المتعددة والمتشابكة ، الأمر الذى أدى إلى أزمة مصداقية تعانى منها الدراسات الإفريقية ، وللتغلب على هذه الأزمة يقدم الكاتب عدد من المداخل النظرية المنهجية لدراسة الواقع الإفريقي ، أولها مدخل التحول الديمقراطى ، ثانيا مدخل الاقتصاد السياسى والتكيف الهيكلى ، ثالثا مدخل العولمة ، وأخيرا مدخل الصراعات الاثنية.

بعد ذلك ينتقل الكاتب فى نهاية هذا الباب إلى طرح مجموعة من الإشكاليات التى تواجه مسيرة التنمية السياسية الإفريقية فى عصر العولمة وهى :-

- تعزيز الديمقراطية فى أفريقيا ، حيث تواجه الديمقراطية العديد من العوائق من قبيل الصراعات الاجتماعية ، وانتشار الفقر وإساءة استخدام العملية الديمقراطية الخ...
- الدولة والتنمية ، حيث تم إرجاع فشل نموذج التنمية إلى الدولة باعتبارها المؤسسة الأبرز فى المجتمع ، وبالتالي الوصول إلى أن الدولة مؤسسة عاجزة وغير كفء لادارة العملية التنموية.

أما الباب الثانى فيأتي تحت عنوان "أفريقيا والقوى الدولية" ويستعرض فيه الكاتب وضع القارة السمراء فى مسار التفاعلات الدولية فى الوقت الراهن وفى استراتيجية الدول الكبرى ، هذا الوضع بالطبع قد تغير كثيرا عما كان عليه فى الماضى ، فبعد أن كانت القارة اكثر مناطق العام تهميشا ، والأقل نصيبا من اهتما القوى الكبرى بها ، انتقلت القارة إلى قلب الاهتمام الدولى ، ليس فقط من قبل الولايات المتحدة والدول الأوروبية ، وانما أيضا من قبل قوى إقليمية خصوصا إسرائيل ، وشهدت القارة حالة من التنافس الدولى الشديد على النفوذ ، ويؤكد الكاتب أن النفط والغاز لعبا دورا هاما فى تصاعد حدة ووتيرة هذا التنافس ، بالإضافة إلى الحرب التى تشنها أمريكا على قوى الإرهاب ، والتي كانت أفريقيا أحد أهم ميدانيها. وقد كان لهذا التنافس آثار معوقة لمسيرة التطور داخل القارة ، وذلك فى ضوء حقيقتين ، أولهما العولمة وما تتضمنه من تهميش ليس فقط لإفريقيا وانما لدول الجنوب بصفة عامة ، ثانيهما أمركة العولمة وعسكرتها خصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر.

ثم يعرض الكاتب لقضية السودان (مشكلتا الجنوب ودارفور) باعتبارها مثالا على التنافس الدولى المحتدم على النفوذ فى أفريقيا.

أما الباب الثالث فيأتي تحت عنوان "أفريقيا وتحدى التنمية" ، وفى هذا الباب يعرض الكاتب لمسالة الصراعات الاثنية والسياسية داخل القارة كأحد ابرز العقبات أمام تحقيق التنمية فى القارة ، فالصورة الذهنية عن أفريقيا أنها قارة مليئة بالصراعات وحالات العنف ، فى ظل واقع يزداد فيه تهميش المواطن باستمرار ، الأمر الذى أدى إلى ظهور النزعة التشاؤمية حول مستقبل أفريقيا "Afro Pessimism". ويحاول الكاتب فى هذا الجزء تفسير ظاهرة الصراعات فى أفريقيا وأنماطها ودور الدولة فى هذه الصراعات ، والسياسات التى يجب اتباعها من اجل التقليل منها ، ويرجع الكاتب نشوب هذه الصراعات إلى عدد من العوامل ، أولها التنوع الشديد (لغويا ودينيا واجتماعيا...) الذى تشهده القارة ، ثانيا الهوية الاثنية فى مقابل الهوية الوطنية ، ثالثا السياسات التى اتبعتها القوى الاستعمارية إبان الحقبة الاستعمارية ، رابعا إخفاق مشروع الدولة الوطنية ، وأخيرا العوامل الداخلية.

ثم يعرض الكاتب فى خاتمة هذا الباب للمبادرات التى قدمت لمعالجة هذا الواقع المتأزم ، ويركز على مبادرتين أساسيتين ، المبادرة الأولى قيام الاتحاد الإفريقي ليحل محل منظمة الوحدة الإفريقية ، ومن أجل تسريع وتيرة العمل الإفريقي المشترك. ثانى هذه المبادرات هى مبادرة النيباد التى تسعى إلى تحقيق أهداف أفريقيا التنموية ، من خلال القضاء على الفقر والتهميش الذى تشهده القارة فى عصر العولمة.

ثم تأتى خاتمة الكتاب ليعرض فيها الكاتب لرؤيته عن كيفية مواجهة هذه التحديات التى عرضها على طول صفحات الكتاب ، وفيها يشير الكاتب إلى مفهوم أفرابيا "Afrabia" ، هذا المفهوم الذى أشار إليه الأستاذ الكينى على مزروعى ، ليشير به إلى تجمع حضارى يجمع بين الجزيرة العربية والقارة الإفريقية ، حيث كانتا كتلة واحدة منذ ملايين السنين ، ولكن العوامل الجيولوجية أدت إلى حدوث تصدعات وانشقاقات فى القشرة الأرضية ، وفصلتهما عن طريق البحر الأحمر الذى لم يكن موجودا قبل ذلك ، هذا التجمع تدعمه الحقائق على ارض الواقع ، فهناك تشابه كبير بين الكيانين.

يختم الكاتب الكتاب بدعوة إلى إرساء تقاليد عربية رصينة فى الدراسات الإفريقية ، من اجل الوصول إلى فهم عربى صحيح للواقع الإفريقي.